الى الانتظار حتى النهاية. ثم قصدت الدار التي ذكرتها لك. وبقيت فيها طول نهاري وهزيعاً من الليل وحوالي الساعة الثانية صباحاً جاءت كارمن فدهشت قليلاً لرؤيتي هناك، وقلت لها: (هيا معي).

قلت: «حسنا فلنذهب»

جئت بحصاني، فاردفتها خلفي وسرنا الليل بطوله ونحن صامتان لا نتبادل كلمة واحدة. وعند انبلاج الصبح وقفنا في حانة منعزلة مجاورة لدير صغير وهنا خاطبتها بقولي:

- اعيرني سمعاً اني الان نسيت، كل ما مضى ولن اشير اليه بكلمة واحدة ان اقسمت على طاعتي في امر واحد. ان تأتي معي الى امريكا، فنحيا حياة هادئة.

أجابت بصوت غضوب:

- كلا، لا ارغب في النزوح الى امريكا، انا سعيدة هنا.
- ذلك لانك قريبة من لوكاس. ألا فلتعي ما سأقوله الان، لو شفي لوكاس هذا، لجعلت منه عظاماً نخرة. ثم، لماذا انا ازعج نفسي بامره؟ لقد اتعبَتنْي كثرةُ القضاء على عشاقك والدور دورك الان.

صوبت اليّ عينها بثبات وارتسمت على وجهها علائم الوحشية والغلظة وقالت:

- كنت على يقين دوماً من انك قاتلي، فاول ما وقع نظري عليك لقيت كاهناً امام باب داري. والليلة حين غادرنا

قرطبة! أما رأيتَ؟ أما رأيت ارنباً يقطع الطريق مارقاً بين سنابك حصانك؟ انه القدر الذي لا مرد له.

- احقيقة انك ما عدت تشعرين بحب لي يا «كارمينسيتا»؟

فلم تجب وتربعت على حصير واخذت ترسم تهاويل وخطوطاً على الارض باصبعها، فقلت لها متوسلاً.

- الا فلنغير اسلوب حياتنا، تعالي نعشْ في محل واحد، فلا نفترق ابداً وتعلمين اننا نملك ستة وعشرين جنيهاً ذهباً مطمورة في جذر بلوطة قريبة، وسنحصل على بعض المال من «ناثان بن يوسف» اليهودي.

فابتسمت وقالت مستأنفة حديثها السابق:

- انا اولاً وانت بعدي لقد انكشفت لي الحقيقة منذ زمن..

قلت لها مغتاظاً: «فكري ملياً، فانا في المرحلة الاخيرة من صبري، قرري أو سأقرر انا» قلت هذا واتجهت الى بيعة الدير. فوجدت الكاهن مستغرقاً في صلاته، فانتظرت حتى انتهى. لقد شعرت بشوق ملح الى الصلاة لكن لم استطع وعندما نهض الكاهن، دنوت منه وقلت له:

- ابت الا تصلي لشخص هو الان في كَرب وشدة عظيمين؟

- اني اصلي لجميع المكروبين والحزانى.

- ايمكنك ان تقيم «قداساً» الهياً عن نفس توشك ان تلاقي ربها؟

- لا مانع لدي.

قلت مغتاظاً: فكري ملياً، فانا في المرحلة الاخيرة من صبري

قال هذا واخذ يصعّدني بنظره ويتفرس بي، وربما لحظ شيئاً غريباً في عيني فأراد حملي على الكلام، قال:

- اتظنني رأيتك قبل اليوم؟

وضعت ريالاً على «مصلاه» وسألته متى سيشرع في القداس فاجاب:

- سيأتي ابن صاحب الحان في ظرف نصف ساعة ليخدمني فيه. هيا ايها الشاب خبرني أليس في نفسك ما يقلق بالك؟ الا تصغ الى نصيحة مسيحي؟

شعرت اني اكاد انفجر فقلت اني سأعود ثم خرجت مسرعاً وارتميت على العشب وبقيت حتى طرق سمعي قرعات الناقوس، فدنوت من المعبد، لكني لم الجه. وما ان انتهى «القداس» حتى عدت الى الفندق، وكلي أمل ان تكون (كارمن) قد انتهزت فرصة غيابي، فافلتت مني على صهوة جوادي. لكني وجدتها لخيبتي حيث تركتها. انها ما كانت تريد ان توصم بالخوف مني! وفي غيبتي عمدت الى فصل حاشية ثوبها؛ واخرجت منه قطع الرصاص. وعند مجيئي رأيتها واقفة امام الخوان تنتظر في قدر مملوء بالماء، وكان الرصاص المستخرج من حاشية الثوب مستقراً في قاعه. فبدأ يذوب. كانت عاكفة على سحرها هذا حتى انها لم تلحظ اوبتي اول الامر. كانت تخرج القطعة تلو القطعة من الاناء فتدور بها في كل الجهات. آنا بكآبة وآنا بانشاد أغنية من اغانيها غير المفهومة التي يستصرخ بها الغجر «ماري

بادللا»[٥٤] عشيقة الدون بدرو التي كانت حسب زعمهم «باري كرازيلا» او (ملكة الغجر)

قلت لها: «الا تأتين معي يا كارمن؟» فنهضت وقلبت القدر المملوء ماء، واتشحت بملاءتها كأنها تستعد للرحيل، فأمرت بحصاني فجيء به وامتطيته واردفتها ورائي وانطلقنا بعد ان قطعنا مسافة، قلت لها:

- اذن فستأتين معي حقاً يا كارمن الحبية؟ اليس كذلك؟
- اني اتبعك الى الموت وهذا صحيح، لكني لن اعيش معك ابداً.

كنا نسير في درب ضيق فاوقفت حصاني وقلت: «ها هنا!» وبقفزة واحدة كانت على الارض، خلعت ملاءتها وفرشتها تحت قدميها وظلت واقفة بلا حراك، واحدى يديها مستقرة على فخذها، وهي ترمقني بنظرات التحدي، وما لبثت ان قالت:

- تروم قتلي اليس كذلك؟ اني ارى ذلك جيداً. وما كتب في لوح القدر لايمحى. ولن تراني اذعن لك ابداً.

فقلت لها متوسلاً:

- بربك كوني عاقلة. اصغي اليّ، ما مضى وسننسى كل شيء انت تعرفين بانك سبب خرابي، ولاجلك صرت لصاً ثم

٥٤- يتهمون بادللا بانها سحرت الدون بدرو. وتؤكد رواية شائعة انها اعطت الملكة البوربونية (بلانش) حزاماً من الذهب يبدو في عين الملك المسحور ثعباناً فاخذ يكره زوجته الشقية(المؤلف).

قاتلاً. كارمن! حبيبتي كارمن! دعيني انقذك، وسأنقذ نفسي معك.

- (خوزيه) انت تطلب المحال وانا لم اعد اكن لك ذرة من الحب. اما حبك لي فباق، ولهذا تروم قتلي. قد يكون الكذب عليّ سهلاً، لكن لن ازعج نفسي بتلفيق كذبة. لقد انتهى ما بيننا، وانقطع حبل الوصل وانت كزوج؛ لك ملء الحق في قتلي. لكن (كارمن) ستظل حرة دائماً ابدا. ولدت حرة وستموت حرة!!

- صوخت بها: «افانت تحبين لوكاس اذن؟»

- اجل، فلقد احببته زمناً. وربما كان حبي له اقل مما احببتك، اما الان فانا لا احب بشراً. اني الان اكره نفسي لما خصصتك به من الحب ولأحتقرنها ان احبتك بعد الان!

ارتميت على قدميها، تناولت يديها بيدي هاتين، وبللتهما بالدموع. ذكرتها بكل الايام التي قضيناها معاً. عرضت عليها ان ابقي في زمرة العيارين، ان شاءت. وعدتها بكل شيء ياسيدي، بكل شيء شريطة ان تحبني فقالت:

- اما ان ارجع فاحبك، فهذا محال! اما العيش معك، فلا استسيغه.

اجتاحني الغضب وغلت مراجل حقدي فسللت مديتي. كنت اود لو اظهرت بعض خوف او ضراعة لكنها كانت شيطاناً رجيما. صحت بها:

- اقول لك آخر مرة هللا ارتضيت العيش معي؟

فضربت الارض بقدمها وصرخت : «كلا.. كلا.. كلا» ونزعت من اصبعها الفتخة التي اهديتها لها وقذفت بها الى الدغل. طعنتها مرتين وبالمدية التي ورثتها عن (گارسيا) عندما تحطمت مديتي في عنقه. فسقطت بعد الطعنة الثانية دون ان يند منها صوت. خيل لي ان عينها السوداوين النجلاوين تحدقان بي، ثم ما لبثتا ان غشتا وانطبق عليهما جفناها. بقيت اكثر من ساعة منطرحاً قرب جثتها، غائب الرشد شارد اللب. ثم تذكرت بانها كانت تردد امامي رغبتها ان يكون قبرها في غابة. فشققت لها حفرةً بمديتي، واسجيتها فيه ثم فتشت عن فتختها حتى عثرت عليها بعد لأي، فوضعتها مع جثتها هي وصليب صغير (ربما كنت مخطئاً في هذا العمل) ثم اني اعتليت صهوة جوادي وانطلقت انهب به الارض حتى قرطبة. وفي اول مخفر من مخافرها اوضحت حقيقة شخصي، واعترفت بقتل كارمن لكني لم ادلهم على مثواها الاخير.

كان الكاهن رجل خير وصلاح فصلى على روحها واقام قداساً لخلاصها.. يا للطفلة المنكودة. انما يقع اللوم كله على معشر الغجر فقد ربوها على اساليبهم وطرقهم.

الفصل الرابع

تجد في اسبانيا اليوم اكبر عدد من تلك القبائل الرحالة المعروفة في اوربا باسم «البرهميين والخيتانوس، او الجپسي؛ او الزيگوينر»[٥٥] وغير ذلك واغلبهم يسكنون او بالاحرى يمكن مشاهدتهم منتشرين في المناطق الشرقية والجنوبية من اندلوسيا وفي (استرامادو) ومملكة (مرسية) وفي (قطلونية) وقسم كبير منهم يتنقل بينها وبين فرنسا، وكثيراً ما يشاهدون في اسواق القرى جنوب مرسيليا. والرجال منهم يتعاطون عادة اعمال السمسرة والبيطرة، او قص شعر البغال او اصلاح الاواني الرصاصية. اما التهريب وسائر الاعمال المخالفة للقانون فهي خاصة بهم لا ينافسهم فيها احد، ونساؤهم قارئات بخت او مستعطيات. وقد يحترفن مهنة بيع العقاقير الطبية الضارة وغير الضارة. ان الوصف الجسمي يمكن ان يقربهم الى الذهن اكثر من الوصف الكتابي. فالواحد منهم يمكن اخراجه من بين الف.

٥٥- في الفرنسية bohemiens في الالمانية zigeuner في الاسپانية -gi tanos في الانكليزية gypsy.(م)

وتقاطيع الوجه والسحنة هما الصفتان البارزتان الكفيلتان بتمييزهم عن سائر السكان الذين يعيشون معهم. فبشرتهم دكناء تقوب الى السواد وهي في كل الظروف اكثر اسمراراً من الناس الذين يعايشونهم. والكالي اي (الاسود) هو الاسم الذي يطلقونه على انفسهم. واعينهم قليلة الانحراف، سوداء الحدقة. ونظراتهم ثاقبة حادة وحواجبهم كثة غليظة. ويمكن تشبيه نظراتهم بنظرات الوحش الكاسر. ويمكن للمرء ان يتقرى الجرأة والانطواء على النفس من سيمائهم. اما اعينهم فتوضح اخلاقهم وهي الحيلة والجرأة والخوف مثل «بانورج» بطل «رابليه»[٥٦] واغلب رجالهم متناسقو الابدان رشيقو الحركات رياضيو المظهر، ولا اذكر اني رأيت بديناً او مترهلاً بينهم. والغجريات الالمانيات تغلب عليهن مسحة الجمال. اما الجمال في الاسبانيات منهنَّ، فقليل نادر، لكنهن على خلوهن من ذلك، شديدات الجاذبية وهن صغيرات، فاذا كبرن وانجبن قبحت صورتهن الى درجة كبيرة.

وقذارتهم، ذكوراً او اناثاً تجل عن الوصف. ومن لم ير لمة شعر

٥٦- Rablais: كاتب فرنسي شهير ولد ما بين ١٤٨٣ و ١٥٠٠ وتوفي في ١٥٥٣، و(بانورج) في قصته هو شخصية خيالية وردت الى جنب «بانتاكرول Pantagruel» وقصته هذه التي صارت يضرب بها المثل في الجرأة والحيلة والخوف، هي ان بانورج اقتتل مع تاجر اسمه دانانو، فشجه هذا فعزم على الانتقام منه، بان اشترى خروفاً من قطيعه وخاض به البحر، فجذب صوت الخروف سائر القطيع وتبع بانورج الى الماء، حيث وقف هذا في زورق وصار يهوى بضربه قاتلة على كل خروف من القطيع حتى اباده